الفصل الثالث
علاقة الخزر بغيرهم

بلغت هذه الإمبراطورية أوج عزها فى النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى، أى فيما بين تهوّد الملك بولان والإصلاح الدينى الذى قام به غبديه. وثمة رمز حىّ لسلطان الخزر يتمثل فى الإمبراطور «ليو» الخزرى الذى لقب بهذا اللقب نسبة إلى أمه الأميرة الخزرية «الزهرة» التى أحدثت فى البلاط زيًا جديدًا.

على أن الزيجات والمصاهرات بين الأسر الحاكمة فى خضم مؤتمرات ذلك العهد، ومحاولات إخفاء الأغراض التى تستهدفها الدول، كان من الممكن أن تنطوى على الخطر، ذلك أنها كثيرًا ما كانت السبب فى اشتعال نار الحروب. وهناك أمثلة كثيرة على ذلك.

ولم نعد نسمع بعد بقتال يدور بين الخزر والعرب بعد نهاية القرن الثامن الميلادى، والظاهر أن الخزر قد أخذوا بدخول القرن التاسع ينعمون بفترات من السلام، واستقرت علاقتهم بالخلافة استقرارًا بمعاهدة تقوم على عدم الاعتداء، أما علاقاتهم ببوزنطة فمضت تقوم على الصداقة والود.

على أنه حدث فى منتصف هذه الحقبة المثلى من السلام أن أحس الخزر بنذر الخطر، فاوفد خاقانهم سنة ٨٣٣ بعثة إلى ثيوفيلوس إمبراطور الإمبراطورية الرومانية الشرقية يسأله أن يوفد إليه مهندسين وأرباب حرف مهرة ليقيموا له قلعة على المشارف الدنيا لنهر الدون، وهكذا قامت قلعة «سَرْكَل» على مصب هذا النهر فى ذلك الموقع الاستراتيجى الهام.

وكان العدو المحتمل الذى قامت من أجله هذه القلعة الرائعة هو أولئك القادمون الجدد على المسرح العالمى. ونعنى بهم قراصنة الشمال الذين أطلق عليهم المشارقة اسم الروس.

وبعد موجة الفتوح العربية بقرنين أتى التاريخ بموجة أخرى شبيهة بذلك، فقد خرج قراصنة الشمال من أقصى الشمال من العالم، أى من إقليم اسكندناوة، وتقدموا جنوبًا على متن البحر والمجارى المائية الأخرى. وكان العرب يحاربون حربًا مقدسة هى الجهاد فى سبيل الله، أما قراصنة الشمال فكانوا يحاربون حربًا دنيوية تقوم على القرصنة والسلب والنهب.

وحوالى الوقت الذى بنيت فيه قلعة «سَرْكَل». كان قراصنة الشمال فى الغرب قد ركبوا متن المجارى المائية الكبرى فى أوربا وغزوا نصف أيرلندة، وفى العقود التالية من السنين استعمروا أيسلندة وغزوا نورماندیا، ونهبوا باريس مرارًا وأغاروا على ألمانيا،

ودلتا الرون، وخليج جنوة، وجابوا شبه جزيرة أيبريا، وهاجموا القسطنطينية مخترقين البحر المتوسط والدردنيل، واقترن هذا بهجوم الروس على نهر الدنيبر الأدنى عابرين البحر الأسود.

ولا عجب إذن أن نجد القسطنطينية تحتاج إلى حلفائها الخزر لحمايتها من شر غارات قراصنة الشمال، كما احتاجت إليهم من قبل ذلك بعدة قرون لوقف تيار الفتوح الإسلامية الجانحة.

وصنف قراصنة الشمال يسميه البوزنطيون «الروس» ويسميه الإخباريون العرب «الورنك»، والاسم «الروس» مشتق في أغلب الظن من الكلمة السويدية «رودر» بمعنى المجذفين. أما «الورنك» فاسم استعمله العرب والتاريخ الروسي الإخباري الأول للدلالة على قراصنة الشمال أو الإسكندناويين. وكان هؤلاء يغيرون في مواسم، وتعتمد هجماتهم على جزائر استراتيجية تتخذ معاقل ومخازن سلاح تزود القواعد التي يهاجمون منها البر الأصلي. وقد نشأت هذه الهجمات بطبيعة الحال من غارات السلب والنهب والتجارة المفروضة على مستوطنات يتفاوت حظها من الاستقرار، ثم يندمج الغزاة في سكان الأراضي المفتوحة.

وقد كان قراصنة الشمال ينهجون هذا النهج في غزو الطرف الشرقي من أوربا، فقد عبروا بحر البلطيق والخليج الفنلندي وأبحروا صعدا في نهر فولخوف وولجوا بحيرة إيلمن (جنوبي لينينغراد

الحالية) حيث وجدوا جزيرة مواتية لأغراضهم هى هولمجارد، وأقاموا عليها مستوطنًا نما فأصبح من بعد نوفجوردو، ومنها مضوا فى غارتهم جنوبًا فهبطوا من الفولجا إلى بحر الخزر، ومن الدنيبر إلى البحر الأسود. وكان الطريق الأول يؤدى بهم إلى أراضى البلغار والخزر المناهضين لهم، ويؤدى بهم الثانى إلى أراضى القبائل الصقلبية المختلفة التى تسكن المشارف الشمالية الغربية لإمبراطورية الخزر وتؤدى لهذه الإمبراطورية الجزية.

***

وكان الروس «الورنك» مزاجًا فريدًا بين إخوانهم قراصنة الشمال، فقد اجتمعت فيهم خلائق القراصنة واللصوص والتجار من أهل الخسة الذين يتاجرون بشروطهم تحت تهديد السيوف والفئوس، فكانوا يقايضون الذهب بالفراء والسيوف والعنبر، على أن قوام تجارتهم كان هو العبيد.

وشاهد ذلك ما كتبه الجغرافى العربى ابن رستة إذ قال عن الروس: «وهم يغزون الصقالبة، يركبون السفن حتى يخرجوا إليهم ويسبوهم ويخرجوهم إلى خزران، يبيعونهم منهم. وليس لهم مزارع، إنما يأكلون ما يحتملونه من أرض الصقالبة. وإذا ولد لرجل منهم مولود قدم إلى المولود سيفًا مسلولا فألقاه بين يديه، وقال له: لا أورثك مالا، وليس لك إلا ما تكسبه لنفسك بسيفك هذا».

وهكذا كانت قوافل الروس تبحر جنوبًا فى فصل الصيف متخذة صفتين: صفة الأساطيل التجارية، وصفة الأساطيل الحربية الضخمة، أحيانًا.. كان هؤلاء الروس يجمعون بين الصفتين حتى لا يصعب على المرء أن يتنبأ متى ينقلب التجار محاربين. وكان حجم هذه الأساطيل هائلا كما جاء فى رواية المسعودى. وقد عبر هؤلاء الروس فى المراحل الأولى من مغامراتهم البحر الأسود واستولوا على القسطنطينية فى أسطول يقدر بما بين ٢٠٠ سفينة، ومائتين وثلاثين سفينة.

وقد اضطر البوزنطيون والخزر إلى مطاولة هؤلاء الفاتحين ذوى الإقدام والبأس الذين اشتهروا بالغدر والخيانة، فكانوا بعد قرن ونصف القرن من بناء قلعة سركل يعقدون معهم معاهدات تجارية ويتبادلون معًا السفارات وتنشب بينهم وبين الروس حروب ضارية، وبمضى الزمن تأثر الروس رويدًا رويدًا بأخلاق الأمم المفتوحة وامتزجوا بأهلها واعتنقوا أخيرًا عقيدة الكنيسة البوزنطية.

وقد تحير الإخباريون العرب فى أمرهم حتى تناقضت أقوالهم، بل كان الإخبارى منهم يناقض نفسه بنفسه، ونجد كاتبنا الأثير ابن فضلان يتقزز من قذارة الروس حين لقيهم على نهر الفولجا (إتل) فى أرض البلغار فيقول: «وهم أقذر خلق الله.. ولابد لهم فى كل يوم بالغداة أن تأتى الجارية ومعها قصعة كبيرة فيها ماء،

فتقدمها إلى مولاها فيغسل فيها وجهه ويديه وشعر رأسه فيغسله ويسرحه بالمشط فى القصعة ثم يمتخط ويبصق فيها، ولا يدع شيئا من القذر إلا فعله فى ذلك الماء، فإذا فرغ مما يحتاج إليه حملت الجارية القصعة إلى الذى يليه، فيفعل مثل ما فعل صاحبه ولا تزال ترفعها من واحد إلى واحد حتى تديرها على جميع من فى البيت، وكل واحد منهم يمتخط ويبصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها».

ويكتب ابن رستة حوالى ذلك الوقت فيقول فى الروس: «ولهم نظافة فى لباسهم»

ثم يستنكر ابن فضلان أشد الاستنكار وطء الروس جواريهم على الملأ وقضاء حاجتهم علنا بما فى ذلك ملكهم، على حين لا يعرف ابن رستة ولا الكرديزى شيئا عن مثل هذه العادات المرذولة. ومع ذلك فإن أقوالهم تتسم كذلك بالغموض والتناقض، فابن رستة يقول: «ويكرمون أضيافهم ويحسنون إلى من يلوذ بهم، ولم يسوغوا أحدا منهم اهتضامهم ولا الجور عليهم، وكل من أقدم عليه بمكروه أو ظلم أعانوهم ودفعوا عنهم».

ولكنه بعد عدة فقرات يرسم لهم صورة مختلفة عن ذلك كل الاختلاف فيقول: « ولا يبرز أحدهم لقضاء حاجته وحده، إنما يصحبه ثلاثة نفر من رفقائه يتحارسونه بينهم، ومع كل واحد

منهم سيف لقلة أمانتهم والغدر الذى فيهم، فإن الرجل إذا كان له قليل مال طمع فيه أخوه وصاحبه الذى معه أن يقتله ويسلبه».

***

كانت هذه هى الظروف التى واجهت الخزر، وكانت سر كل قد شيدت فى أوانها، فمكنهم من مراقبة حركات سفائن الروس على طول المشارف الدنيا لنهر الدون ومدخله إلى الفولجا أى ما يعرف بالطريق الخزرى.

وكانت غارات الروس للنهب والسلب موجهة فى معظمها إلى بوزنطة فى القرن الأول لظهورهم، وذلك فى الوقت الذى كانت تقوم علاقاتهم بالخزر عى التجارة ولو أن هذا لم يكن يخلو من الاحتكاكات بين الحين والحين. ومهما يكن من شىء فإن الخزر استطاعوا الهيمنة على طرق الروس التجارية وجباية نسبة العشرة فى المائة مكوسًا[1] على شحناتهم فى عبورهم أرض الخزر إلى بوزنطة والبلاد الإسلامية. وقد أثروا أيضا بعد الأثر الثقافى فى قراصنة الشمال الذين أبدوا- برغم أساليبهم العنيفة- رغبة صادقة فى التعلّم من الشعوب التى قدر لهم أن يحتكوا بها. وشاهد ذلك اتخاذ الروس لقب الخاقان من الخزر واتخاذهم عاهلين يتوليان أمرهم وهو أمر كان غريبًا على الشعب الجرمانى فى الشمال.

---

(١) المكس: دراهم كانت تؤخذ من بائعى السلع فى الأسواق – القاموس المحيط –

ومن المؤسف أن نظام الحكم السوفيتى قد جاء بعد ألف سنة من الوقائع التى ذكرناها، فسعى إلى طمس هذه الحقائق وإنكار أثر الخزر الثقافى فى الروس وما بلغوه فى هذا الميدان من شأن. والعجيب أنهم حملوا الاستاذ أرتامونوف مؤرخهم المشهور على تغيير رأيه فى وجود هذا الأثر إذا نقدته صحيفة «برافدا» فغير رأيه الذى أبداه فى كتابه الصادر سنة ١٩٣٧ وأنكره فى كتابه الصادر عن تاريخ الخزر سنة ١٩٦٢ وقال: إن الروس لم يأخذوا شيئا عن الخزر.

وقد أكمل الحزب السوفيتى هذا الطمس فأغرق أطلال قلعة سركل. وهذه العلاقات التجارية والثقافية الوثيقة المتبادلة بين الروس والخزر لم تمنع الروس من طى الطريق رويدًا رويدًا بينهم وبين الإمبراطورية الخزرية باحتواء رعايا هذه الإمبراطورية من الصقالبة الأقيال الذين كانوا يحكمون هؤلاء الرعايا التابعين لها.

ونستدل من التاريخ الإخبارى الروسى الأول على أن المدينة العامة «كييف» القائمة على الدنيبر والتى كانت خاضعة لـ «نوفجورود» أصبحت قصبة الورنك و«أم المدائن الروسية»، على حين أصبحت الإدارة التى تسمت باسمها مهد الدولة الروسية.

ورسالة الملك يوسف التى كتبت بعد احتلال الروس كييف بقرن تقريبًا لم تعد تذكر هذه المدينة بين أملاك الخزر. على أن جماعات خزرية يهودية ذات نفوذ ظلت باقية فى مدينة كييف

وإقليم كييف، فلما دمرت بلاد الخزر تدميرًا قضى عليها قضاء مبرمًا اشتد أزر هذه الجماعات بأعداد كبيرة من الخزر المهاجرين، ودأب التاريخ الإخبارى الروسى على الإشارة إلى الأبطال القادمين من بلاد الخزر، وقد حفظ «باب الخزر» فى كييف ذكرى حكام الخزر السابقين حيّة حتى العصور الحديثة.

* * *

ثم ندخل فى النصف الثانى من القرن التاسع، وقبل أن نستمر فى قصة التوسع الروسى يهمنا أن نلتفت إلى بعض التطورات الفعالة التى طرأت على شعب الفيافى، وخاصة المجر، وهذه الحوادث جرت موازية لقيام سلطان الروس ولها أثر مباشر على الخزر وخريطة أوربا.

كان المجر خلفاء الخزر وأتباعهم عن رغبة منذ فجر الإمبراطورية الخزرية. أما مشكلة أصلهم فقد ظلت أمدًا طويلا تحيّر العلماء، بل لقد كانت هذه المشكلة من أغمض ألغاز التاريخ. والذى نعلمه علم اليقين عن هذا الأصل هو أن المجر كانوا يرتبطون بالفنيين بصلة القرابة، وتنتمى لغتهم إلى أسرة اللغات الفنية الأوجرية. ومن ثم فإنهم كانوا لا يرتبطون فى الأصل بالأمم الصقلبية والتركية فى الفيافى، وكانوا قد خرجوا من بين هذه الأمم وهذه عجيبة سلالية من العجائب. وهنغاريا ليس لها،

كغيرها من الأمم الصغيرة الأخرى، صلات لغوية بجيرانها. فقد ظلت أمة ذات عرق قائم بذاته في أوربا، لا ترتبط إلا بأبناء عمومتها الأبعدين وهم الفنيون.

وفي وقت غير معلوم من القرون الأولى للتاريخ الميلادي طردت هذه القبيلة البدوية من منازلها السابقة في الأورال، وهاجرت جنوبًا مخترقة الفيافي واستقرت آخر الأمر في الإقليم الممتد بين نهري الدون وقوبان، وأصبحت من ثم جارة للخزر حتى قبل أن يعلو شأن هؤلاء. وكان المجر مدة من الزمن داخلين في حلف القبائل شبه البدوية المعروف باسم الأونغور (أي السهام العشرة أو القبائل العشر)، والمظنون أن الاسم «الهنغاري» رواية صقلبية للأونغور، على حين أن المجر هو الاسم الذي أطلقوه على أنفسهم منذ عهد سحيق.

وظل المجر منذ منتصف القرن السابع تقريباً إلى آخر القرن التاسع خاضعين لإمبراطورية الخزر، ومن العجيب أننا لا نجد سندًا واحدًا يقول بقيام نزاع مسلح واحد بين الخزر والمجر، على حين أن القبائل الأخرى قد اشتبكت طوال هذه الحقبة في حروب دموية. وكان المجر يجبون الجزية لحساب الخزر من الصقالبة والفنيين في منطقة الأرض السوداء إلى الشمال من أملاكهم هم في الفيافي، ومنطقة الغابات إلى الشمال من ذلك. وهكذا كان المجر يسيطرون على جيرانهم الصقالبة، ويستغلون حياتهم للجزية لحساب الخزر.

وقد غير وصول الروس هذه الحالة التى نعم بها المجر تغيرًا جوهريًا، فقد حدثت فى الوقت الذى أقيمت فيه سركل تقريبًا حركة كبيرة بين المجر، إذ عبروا نهر الدون إلى ضفته الغربية، ومنذ سنة ٨٣٠م أو حول ذلك، عاد الفريق الأكبر من الأمة المجرية إلى الاستقرار فى الإقليم القائم بين الدون والدنيبر الذى سمى من بعد «لبديا» .وقد اختلف المؤرخون اختلافًا كبيرًا حول هذه النقلة، وخير تعليل لها ما قال به توينبى من أن المجر كانوا ينزلون الفيافى التى إلى الغرب من الدون بإذن سادتهم الخزر، وكانت هذه الفيافى من قبل تابعة للخزر وكان المجر حلفاءهم، ونخرج من ذلك بأن الخزر أقاموهم فى هذه المنازل خدمة لأغراضهم الاستراتيجية، فهم وهم مستقرون فيها يعاونونهم على صد تقدم الروس من الجنوب الشرقى ومن الجنوب.

واستمر هذا التدبير يفعل فعله بنجاح نصف قرن تقريبًا، بل إن العلاقات بين المجر والخزر خلال هذه الحقبة أصبحت أكثر وثوقًا وانتهت بحادثين كان لهما أثر على الأمة المجرية لا ينقضى ولا يزول. الأول أن الخزر منحوهم ملكًا أسس أول أسرة حاكمة مجرية. والثانى أن عدة قبائل خزرية انضمت إلى المجر وغيرت تغيرًا جوهريًا طبيعتهم السلالية.

وثمة حادث آخر يظهر أنه كان له أثر أعمق من هذا فى الصفة القومية للمجر، ذلك أن المؤلف القديم قسطنطين يروى لنا أنه حدث

فى تاريخ لم يسمّه عصيان من فريق من الأمة الخزرية انتقضوا على حكامهم. وكان المنتقضون ثلاث قبائل هم القور أو القبر من سلالة الخزر. وسيطرت الحكومة على المنتقضين فقتل بعض العصاة وفر بعضهم من البلاد واستقروا مع المجر وتصادقوا معًا، وعلموهم أيضًا اللسان الخزرى، ولا يزالون حتى اليوم يتحدثون بهذا اللسان المعهود كما يتحدثون باللسان المجرى. وهكذا تأثر المجر بالخزر وظل اللسانان- الخزرى والمجرى- حتى منتصف القرن العاشر الميلادى يتحدث بهما فى هنغاريا.

وقد اتخذ المجر، مثلهم مثل الروس، صورة معدلة من نظام الحكم الخزرى الذى يتولى فيه عاهلان شئون الدولة. ومن ثم يقول الكرديزى «يركب ولى الأمر عندهم فى موكب من ٢٠,٠٠٠ فارس، وهم يسمونه كندة بفتح الكاف (بكسرها فى الهنغارية) وهذا هو لقب ملكهم الأكبر، ولكن لقب الشخص الذى يحكمهم بالفعل هو يولا، والمجر يأتمرون بأمر يولا هذا»، وثمة ما يدعو إلى الظن بأن أول من حكم المجر من هؤلاء اليولات كانوا هم القبر.

وهناك أيضًا بعض الشواهد على أنه كان من بين قبائل القبر العصاة الذين تزعموا القبائل المجرية بالفعل يهود أو أتباع «دين متهود»

***

وانتهى التعاون الوثيق بين الخزر والمجر حين ودع المجر سنة ٨٩٦م الفيافى الأوربية الآسيوية وعبروا سلسلة جبال الكربات، وغزوا الإقليم الذى أصبح من بعد مقامهم الأخير، وتختلف الآراء أيضًا فى ظروف هذه الهجرة.

ففى العقود الأخيرة من القرن التاسع الميلادى دخل مسرح الحوادث البشناق، وهم من البدو الغلاظ الجفاة، وقد لخص قسطنطين المعلومات القصيرة التى تيسرت لنا عن هذه القبيلة التركية فقال: إن أفرادها همج لا يشبع لهم طمع ولا نهم، ويمكن شراؤهم لقتال غيرهم من الهمج والروس. وكانوا يعيشون بين نهرى الفولجا والأورال تحت سيادة الخزر. وكان الخزر فى قول ابن رستة: يغيرون عليهم كل عام لجباية الجزية منهم.

وحوالى نهاية القرن التاسع الميلادى نزلت بهم نازلة، فقد أخرجهم من منازلهم جيرانهم من الشرق وهم الغز (أو الأوغوز) الذين كان يكرهم ابن فضلان أشد الكره، وكانوا من القبائل التركية التى يخطئها الحصر، ينطلقون من ديارهم فى أواسط آسيا وينساقون غربًا. وقد حاول البشناق المطرودون أن يستقروا فى بلاد الخزر، ولكن الخزر دحروهم وأخرجوهم، وواصل البشناق طريقهم متجهين إلى الغرب وعبروا الدون واحتلوا أرض المجر، واضطر المجر بدورهم إلى الارتداد غربًا إلى الإقليم القائم بين نهرى الدنيبر وسرث. والظاهر أنهم استقروا فيه سنة ٨٨٩ م ولكن البشناق عادوا

سنة ٨٩٦م إلى الاندفاع مرة أخرى متحالفين مع بلغار الدانوب، ثم انسحب المجر إلى هنغاريا الحالية.

هذا هو تلخيص لقصة خروج المجر من الفيافى الشرقية، ونهاية الصلة بينهم وبين الخزر، وتختلف الآراء فى تفصيل ذلك ولكن كيف يوفق المرء بين تلك الأفعال التى تدل على الإقدام والشجاعة وبين سلسلة الانسحابات من الدون إلى هنغاريا التى وقعت فى هذه المدة نفسها؟ يبدو أن قسطنطين قد أسعفنا بالجواب فى الفقرة التالية لما ذكرنا، فقال إنه لما عاد سيميون البلغارى إلى مسالة إمبراطور الروم وأمن بلاده بعث إلى الياتزيناق وعقد معهم اتفاقًا لشن الحرب على المجر وإفنائهم. فلما خرج المجر فى غزوة لهم هجم الياتزيناق وسيميون على المجر وأفنوا أسرهم وطاردوا فى غير رحمة المجر الذين بقوا لحراسة بلادهم. ولكن المجر عادوا من غزوتهم ووجدوا بلادهم موحشة خربة فانتقلوا إلى البلاد التى يسكنونها اليوم (أى هنغاريا).

وثمة اعتبار آخر يؤيد هذا القول، وهو أن المجر فيما يبدو لم يتعلموا سنة الإغارة على غيرهم إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع بعد أن تأثروا فى ذلك بالخزر. كما أن القبر قد علّموا المجر تلك الحركات الحربية الخاصة التى استخدمتها كل أمة تركية منذ عهد سحيق مثل الهون والآوار والترك والبشناق والقومان ومن إليهم. وقد أثبتت هذه الأساليب كفاية فى القتل والذبح فى

القرنين التاسع والعاشر الميلاديين حين فتح المغيرون الهنغاريون ألمانيا والبلقان وإيطاليا بل فرنسا. ولكنها لم تفعل مثل هذا الفعل مع البشناق الذين كانوا يلجئون إلى مثل هذه الحركات الحربية.

وهكذا كان للخزر، بهذا المنطق التاريخي المعوج، شأن غير مباشر في إقامة الدولة الهنغارية، في حين اختفى الخزر أنفسهم في ثنايا هذا الضباب.

وبالرغم من ذلك حاول الهنغاريون أن يحتفظوا بهويتهم السلالية، فقد أوهنت أعباء السنوات الستين التي قضاها القبر في حرب لا هوادة فيها ولا ضمير من صفوفهم، أما المجر الأقحاح فكانوا يعيشون في سلام نسبي ويزداد عددهم. كما أنهم نجحوا، بعد العهد الذي كانوا يتكلمون فيه بلسانين، في الاحتفاظ بلغتهم الفنية الأصلية في خضم جيرانهم الألمان والصقالبة، على العكس من بلغار الدانوب الذي أضاعوا لغتهم التركية الأصلية وهم يتكلمون الآن لهجة صقلبية.

ومع ذلك فقد استمر الأثر القبري في هنغاريا، بل نحن نجد الخزر والمجر بعد أن فصلت بينهما جبال الكربات، قد ظلا على صلة لم تنقطع.

وقد عمد المجر في أثناء استيلائهم على وطنهم الجديد الدائم، إلى طرد ساكنيه السابقين وهم الوراقيون وبلغار الدانوب الذين

انتقلوا إلى الأقاليم التى لا يزالون يعيشون فيها، وهكذا أخذت خريطة وسط أوربا الحديثة تستقر.

ونستأنف الآن قصة صعود الروس إلى مقاليد السلطة، ونعنى بذلك ضم كييف إلى دولتهم على يد رجال روريك حوالى سنة ٨٦٢م وهذا هو أيضًا التاريخ التقريبى الذى طُرد فيه المجر غربًا على يد البشناق، ومن ثم حرم الخزر حماية جناحهم الغربى، وقد يفسر ذلك استطاعة الروس الهيمنة على كييف فى سهولة ويسر.

على أن ضعف قوة الخزر الحربية عرّض البوزنطيين أيضًا لهجمات الروس، إذ كانت سفن الروس قرابة هذا التاريخ تبحر هابطة الدنيبر وتعبر البحر الأسود ثم تهاجم القسطنطينية. وقد وصف المؤرخ المشهور بيورى هذه الهجمات التى وقعت وكيف أنقذ البطريق فوتيوس المدينة الخالدة بفصاحته واستنهاض همم سكانها.. ونضيف إلى هذا أن هذا البطرك العالم كان يحمل وجها خزريًا وقد بعث من قبل القديس سيريل فى بعثته الكنسية. صحيح أن تقهقر الروس عن القسطنطينية قد حدث بسبب رجوع جيش الروم وأسطولهم إلى البلاد، إلا أن فوتيوس قد قوى من الروح المعنوية للسكان فى فترة الانتظار المريرة التى سبقت هذا الرجوع.

وهذا يبين لنا مبلغ قوة العدو الذى قرر الخزر أن يواجهوه، ويطلعنا على شان الخزر وقيمتهم فى ذلك الوقت فحسب، ولسوف يضحى بهم فى أول فرصة شريفة أو غير شريفة تلوح فى الأفق.

* * *

وكانت العلاقات بين الروم والروس فى المائتى سنة التالية تتراوح بين النزاع المسلح ومعاهدات صداقة تعقد، ونحن لا نعرف إلا القليل عن أحكام هذه المعاهدات التى يتفاوت نصيبها من السرية، وكل ما نعرفه أنها كانت معاهدات تنطوى على تعقيد يحيرنا ويدعونا إلى البلبلة. ويقول البطرك فوتيوس إنه حدث بعد حصار القسطنطينية بسنوات قلائل أن ارسل الروس سفراء إلى هذه المدينة طالبين من الإمبراطور أن يعمدهم على عقيدة المسيحيين، ولكن يظهر أن الدافع إلى بعث هؤلاء السفراء كان أمرا آخر، ومع ذلك فقد تنصر عدد قليل من الروس.

وكان من بين النتائج المتحصلة من ذلك تجنيد بحارة من الإسكندناويين فى أسطول البوزنطيين، وما وافى عام ٩٠٢ م حتى بلغ عددهم سبعمائة مجند. ومن التطورات التى حدثت تكوين «الحرس الورنكى» الشهور، وهو كتيبة من الروس المختارين وغيرهم من المرتزقة من أهل الشمال ومن بينهم إنكليز. وفى تلك الأيام، أى فى منتصف القرن العاشر الميلادى، كان من المشاهد

المألوفة رؤية الأساطيل الروسية، ولم تكن هذه الأساطيل قادمة لحصار القسطنطينية، وإنما جاءت لبيع بضاعتها.

وبعد حوالى نصف قرن لاحت تباشير انتصار الكنيسة المقدسة، ففى سنة ٩٥٧م عمدت أولجا أميرة كييف وأرملة الأمير إيجور بمناسبة زيارتها الرسمية للقسطنطينية. وقد وصفت الأخبار بالتفصيل المآدب والحفلات الفخمة التى أقيمت للأميرة بهذه المناسبة وأثر ذلك فى نفسها ومدلولات تصرفاتها وتصرفات الإمبراطور قسطنطين وما أغدق عليها من هدايا وآيات التشريف ووعودها له، ثم عرضه عليها الزواج وكيف تخلصت من ذلك بلباقة قائلة له: كيف تعرض علىّ الزواج وقد ناديتنى بابنتى وأنت تعمدنى.

ولاشك أن أولجا كانت امرأة إسكندناوية مسترجلة مقاتلة عاتية، وأرملة للأمير إيجور بن روريك فيما يقال، وقد وصفه التاريخ الإخبارى الروسى بانه كان جشعًا أحمق يستعذب أن ينزل بالناس العذاب والنكال. وقد هاجم الروم باسطول عظيم واعمل فيهم القتل والذبح وأذاقهم العذاب ألوانًا وأشكالا.ثم هزمه الروم بأن صبوا على أسطوله النار الإغريقية.

وانتهت حياة هذا الأمير الظالم بالقتل على يد الدروليان، وهم قوم من الصقالبة كان قد فرض عليهم ضريبة باهظة أثقلت كاهلهم، وخلفته أرملته أولجا، فسارت على منواله وانتقمت من

هؤلاء القوم انتقامًا فظيعًا. ولما تنصرت أولجا هدأت سورتها وأصبحت رائدة المسيحية الروسية ودرة ساطعة بين الكفار.

ولم يكن حادث تنصر أولجا وزيارتها الرسمية للإمبراطور قسطنطين هو فصل الخطاب في الصلات العاصفة بين الكنيسة الرومية والروس، ذلك أن ابن أولجا سيفاتوسلاف عاد إلى الوثنية. ولم يستمع إلى توسلات أمه، وانبرى في خفة الفهد يشن الحملات ومنها حملة على الخزر، وحملة على البوزنطيين. وإنما حدث في عهد ابنه سانت فلاديمير أن اعتنقت الأسرة المالكة الروسية عقيدة الكنيسة الرومية الأرثوذكسية، وحوالي هذا الوقت نفسه انضم الهنغاريون والبولنديون والإسكندناويون إلى الكنيسة اللاتينية في رومة، وهكذا أخذت معالم الفرقتين الدينيتين اللتين انقسم إليهما العالم تتضح، وأخذ اعتناق الخزر اليهودية يصبح من المفارقات. أما التقارب النامي بين القسطنطينية وبين كييف فقد أخذ يقلل شيئا فشيئا من أهمية إتل بالرغم مما مر به من تقلبات. ثم إن وجود الخزر معترضين طرق التجارة بين الروس والبوزنطيين وجبايتهم مكوسًا قدرها عشرة في المائة على ذلك الفيض المتزايد من البضائع أصبح أمرًا مزعجًا يضر بخزانة البوزنطيين وبالتجار الروس المحاربين.

ومن الأمور ذات الدلالة على تغير موقف البوزنطيين من الخزر حلفائهم السابقين تسليم خيرسون للروس. ذلك أن البوزنطيين

والخزر ظلوا من قبل عدة قرون يناوشون حينا ويقاتلون احيانا فى سبيل الاستيلاء على هذا الثغر الهام من ثغور القرم. فلما استولى عليه فلاديمير سنة ٩٨٧ م لم يحرك البوزنطيون ساكنا بل لم يحتجوا أى احتجاج ، ذلك أن التضحية به كما قال المؤرخ المشهور بيورى لم تكن بالثمن الغالى يشترون به السلام الدائم والصداقة الموصولة مع الدولة الروسية التى كانت فى سبيلها إلى أن تصبح دولة عظيمة.

وقد نجد مبررًا للتضحية بخيرسون، ولكن التضحية بالتحالف مع الخزر ثبت بمرور الزمن أنها سياسة قصيرة النظر.